الفصل الأول

الغزل العذري نشأته وآراء النقاد فيه

الغزل العذري

نشأته و آراء النقاد فيه :

الحب العذري أو الغزل العذري، أطلق هذا الاسم في العصر الأموي على الحب الصادق العفيف الذي يختص بامرأة واحدة يخلص لها ويعاني بسببها، وتبادل المرأة الرجل حباً بحب على استحياء وتعفف ، أطلق على هذا النوع من الحب اسم الحب العذري، وغزله الغزل العذري، نسبة إلى قبيلة عذرة ، وهي قبيلة من سعد بن هُذَيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة (١)، اشتهر شعراء من بني عذرة بهذا النوع من الحب وسمي الحب العذري، وأطلق على كل من أحب هذا الحب وإن لم يكن من بني عذرة، فإذا نظرنا إلى الشعراء العذريين في العصر الأموي نجدهم من قبائل مختلفة ولم يكونوا كلهم من بني عذرة ، فقيس بن الملوح (ت ٦٨ هـ) من بني عامر ، وقيس بن ذريح (ت ٦٨ هـ) من كنانة ، وتوبة بن الحُمَيِّر (ت ٨٥ هـ) عقيلي من بني عامر، أما جميل بن عبد الله بن معمر (ت ٨٢ هـ) فهو من بني عذرة ، ووضاح اليمن، عبد الرحمن بن اسماعيل (ت ٩٠ هـ) من خولان من حمير من اليمن ، والصمة بن عبد الله القشيري (ت ٩٥ هـ) من قشير من بني عامر بن صعصعة ، وكثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة المعروف بكثير عزة (ت ١٠٥هـ) الخزاعي ، من خزاعة بن

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٧ و ٤٤٨ ، وقضاعة بن عدنان، وقيل قضاعة بن مالك بن حمير من القحطانية .

ربيعة القحطاني، وقيل بل نسبته إلى الصلت بن النضر بن كنانة من قريش وذو الرمة غيلان بن عقبة (١١٧هـ) العدوي من عدي بن عبد مناة، ويزيد بن الطثرية يزيد بن سلمة بن سمرة (١٢٦ هـ) من بني قشير بن كعب من عامر بن صعصعة، وابن ميادة الرماح بن أبرد (ت ١٤٩ هـ) من بني ذبيان من غطفان .

وإذا جئنا إلى الشعرا الجاهليين الذين أحبوا هذا الحب الذي سمي عذرياً فيما بعد، نجد : المرقش الأكبر عوف بن سعد بن مالك، من بني بكر بن وائل. وكذلك المرقش الأصغر ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك، وعبد الله بن العجلان النهدي من قضاعة ، وقيس بن الحدادية، وهو قيس بن منقذ بن مالك من كنانة .

وفي صدر الإسلام شعراء عرفوا بهذا الحب منهم: عبد الله بن علقمة بن زرارة من بني عامر بن عبد مناة من كنانة، أما عروة بن حزام (ت.٣هـ) فهو من بني عذرة .

وعلى هذا فإن الشعراء الذين عرفوا بهذا الضرب من الحب كثرتهم من قبائل متعددة وليس فيهم من بني عذرة الذي عمَّ هذا اللقب جميع الشعراء ، إلا عروة بن حزام في صدر الإسلام، وجميل بثينة في العصر الأموي ، وقيل في بني عذرة إنهم عرفوا برقة الإحساس ورهف الشعور، واشتهروا بكثرة عشاقها وصدق مشاعرهم وجمال نسائهم، ولذلك اتخذ هذا الحب اسم القبيلة فسمي عذرياً، وكانت قبيلة عذرة تنزل في وادي القرى، وهو واد بين الشام والمدينة، أو بين تيماء وخيبر، فيه قرى كثيرة وبها سمي وادي القرى(١)، وقال أبو المنذر : " سمي وادي القرى، لأن الوادي من

---

(١) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي : القرى ٣٣٨/٤ ، ط دار صادر .

أوله إلى آخره قرى منظومة ، وكانت من أعمال البلاد ، وآثار القرى إلى الآن بها ظاهرة إلا أنها في وقتنا هذا كلها خراب، ومياهها جارية تتدفق ضائعة لا ينتفع بها أحد . قال أبو عبيد الله السكوني : وادي القرى والحِجْر والجناب، منازل قضاعة، ثم جُهينة وعذرة وبلي، وهي بين الشام والمدينة يمر بها حاج الشام، وهي كانت قديماً منازل ثمود وعاد ، وبها أهلكهم الله، وآثارها إلى الآن باقية، ونزلها بعدهم اليهود واستخرجوا كظائمها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها ، فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفاً، وكان لهم على اليهود طعمةٌ وأكلٌ في كل عام ... وروي أن معاوية بن أبي سفيان مر بوادي القرى فتلا قوله تعالى : ﴿ أتُتركون فيها ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل ﴾ الآية ، ثم قال : هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة، وهي بلاد ثمود " (١).

وقد عني المؤلفون القدامى بالحب والعشاق والمحبين ومنه الحب العذري فألفوا فيه الكتب الكثيرة ذكر منها ابن النديم واحداً وأربعين كتاباً في عشاق الجاهلية والإسلام فضلاً عن العشاق من سائر الناسن ، أما المؤلفون المذكورون فهم : عيسى بن دأب، والشرقي بن القطامي، وهشام الكلبي، والهيثم بن عدي، وغيرهم ، وأهم المؤلفات التي تناولت الشعراء العذريين هي : كتاب مرقش وأسماء، و كتاب عمرو بن عجلان وهند، وكتاب عروة وعفراء، وكتاب جميل وبثينة، و كتاب كثير وعزّة، وكتاب قيس ولبنى، وكتاب مجنون وليلى، وكتاب توبة وليلى، وكتاب الصمة بن عبد الله وريًا، وكتاب وحشية وابن الطثرية، وكتاب وضاح اليمن وأم البنين، وغيرها من

---

(١) معجم البلدان : السابق والصفحة .

الكتب،(١) والملاحظ أن هذه الكتب قد استوعبت الشعراء العذريين في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي .

وللنقاد في نشأة الغزل العذري آراء ، فمنهم من يرى أن هذا الغزل هو غزل جديد أموي النشأة متأثر بالإسلام والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كونته، ومنهم من يرى أنه امتداد لغزل العصر الجاهلي مع خلاف في طبيعته وغايته، وكان طه حسين من أوائل من كتب عن الغزل العذري من العرب، وكان قد تحدث عن الغزل في العصر الأموي وقسمه إلى قسمين، قسم عذري نشأ في بوادي الحجاز واقتصر عليها، وقسم حسي إباحي نشأ في حواضر الحجاز واقتصر عليها، ويعزو نشأتهما إلى أثر السياسة الأموية ويوضح رأيه فيهما فيقول : " هذان القسمان من الغزل أثر من آثار الحياة السياسية في أيام بني أمية، اضطرت هذه الحياة السياسية أهل الحجاز إلى الابتعاد عن العمل، وأوقعت في قلوبهم اليأس ، ولكنها أغنت قوماً، فلهوا وفسقوا، وأفقرت قوماً آخرين ، فزهدوا وعفُّوا وطمحوا إلى المثل الأعلى " (٢)، ويعزو طه حسين سبب نشوء الحب العذري إلى الفقر واليأس من السياسة ، والتقوى التي أضفاها الإسلام على نفوسهم ، يقول : " كان أهل البادية الحجازية يائسين، ولكنهم كانوا فقراء، فلم يتح لهم اللهو، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية ، وقد تأثروا بالإسلام وبالقرآن خاصة، فنشأ في نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضري الخالص، وليس بالبدوي الخالص، ولكن فيه سذاجة بدوية ، وفيه رقة إسلامية ، وانصرف هؤلاء الناس عن

---

(١) الفهرست ص ٣٥٠ .

(٢) حديث الأربعاء ١٨٦/١ ط دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣ .

حروبهم وأسباب لهوهم الجاهلي، كما انصرفوا عن الحياة العملية في الإسلام إلى أنفسهم، فانكبوا عليها ، واستخلصوا منها نغمة لا تخلو من حزن، ولكنها نغمة زهد وتصوف " (١) . ورأي طه حسين هذا مقنع في ظاهره وقد تابعه فيه كثير من الدارسين، وهو يعزو ظهور الغزل العذري إلي أنه كان أثراً من آثار السياسة وانتقال الحكم من الحجاز إلى الشام، وذهاب السلطان من الحجاز حيث المهاجرون والأنصار إلى بني أمية في الشام، ويرى أن الغزل نشأ في البادية والحجاز بسبب سياسي مع يأس رافق الفقر والحرمان ، ونتج عن كل ذلك زهد وتصوف وعفة وحرمان .

ولكن النظرة المتفحصة في حياة أهل البادية والقبائل التي نشأ فيها الغزل العذري يرى أن أهل البادية لم يكن لهم اهتمام بالسياسة، ولا يعنيهم أن ينتقل الحكم من الحجاز إلى الشام، وأن يحكم قرشي أو غير قرشي من هذا الفرع من قريش أو ذاك، وكان لسان حالهم يقول :(٢)

وما ضرَّهم غير حَيْنِ النفو سِ أيُّ أميرَيْ قريشٍ غَلَبْ

ولم يكن فيهم من هو طامع في الحكم أوالسلطان ، ثم إن كثيراً من أهل البادية كانوا قد ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ ، وإن بني عذرة الذين نُسب هذا الغزل إليهم لم يكونوا فقراء يائسين ، بل كانوا في وادي القري وهو واد خصب ، وكانوا أهل زراعة وتجارة وما كانوا أهل زهد وتصوف، وكان إسلامهم متأخراً ، فقد أسلموا في السنة السابعة من الهجرة، ولم يكن إسلامهم طوعاً بل بعد حرب وإكراه، يقول ياقوت عن أحمد بن جابر :" في سنة سبع لما فرغ النبي ﷺ من خيبر أتي وادي القرى،

---

(١) السابق ١/ ١٨٥ ـ ١٨٦ .

(٢) الطبري ٥/ ٥٣٨ .

فدعا أهلها إلى الإسلام، فامتنعوا عليه وقاتلوه، ففتحها عنوة، وغنم أموالها، وأصاب المسلمون منهم أثاثاً ومتاعاً " (١) ، وطه حسين نفسه يُقرُّ أن أثر الإسلام في نفوس أهل البادية ومنهم الشعراء العذريون كان ضعيفاً، فهم عنده : " قبائل أعرابية ليس لها شأن عظيم في الإسلام، وإنما هي محتفظة احتفاظاً شديداً ببداوتها القديمة وعاداتها الجاهلية الموروثة" (٢) .

وبعد أن وقفنا على رأي طه حسين في نشأة الغزل العذري وأسبابه نقف عند رأيه في هذا الشعر وهو رأي حسن مصيب، فهو يرى أن هذا الغزل يمتاز بخَصْلتين : " إحداهما البداوة التي تكسب لفظه رصانة في غير عنف ولا جفوة، وتكسب معناه سذاجة في غير سخف ولا إسفاف، والأخرى الصدق في وصف العاطفة وتمثيلها، بحيث لا تكاد تقرأ هذا الشعر حتى تتأثر به ، وتقطع بأن قائله كان رجلاً يألم حقاً، ويصف ألمه وصفاً صادقاً " ، وهؤلاء الشعراء ، يقول :" قد طرقوا موضوعاً بعينه هو الحب ، وتناولوه بأسلوب واحد وعلى نحو واحد من اللفظ، ولذلك فقد تشابهت ألفاظهم ومعانيهم وأساليبهم، فكلهم اعتمد في وصفه على السنن الموروثة وألوان التشبيه التي سبقهم إليها الشعراء الأولون، أو التي تواضع عليها الناس فيما بينهم، ويرى من جانب آخر أن الشاعر العذري لم يعنَ كثيراً بجسم المرأة بل عنى بنفس العاشق، فوصفالنفس وما تلقي بالحب من شقاء أوسعادة، ومن بؤس أو نعيم، فالشاعر العذري أو الإسلامي أضاف إلى المادة شيئاً آخر هو الحب وما يترك في القلب من أثر، وما يبعث في النفس

---

(١) ياقوت : وادي القرى ٣٤٥/٥ .

(٢) حديث الأربعاء ١٨٤/١ .

من عاطفة، وما يسبغ على المحب من كآبة وحزن، وما يحيي فيه من امل ورجاء ، وان هذا الشعر قد صدر صدوراً طبيعياً عن قوم كانوا يشعرون ويألمون ، ويصفون آلامهم ، ويمثلون شعورهم .(١)

ويتضح من كل هذا أن طه حسين يرى أن الشعر العذري نشأ بسبب الدين واليأس والفقر، أي أن هذا الغزل نشأ نشأة إسلامية وفي ظروف المجتمع الإسلامي وبعوامل الدين والسياسة والاقتصاد، وأنه كان ظاهرة بدوية اقتصر على بادية الحجاز، ولم يكن استمراراً لظاهرة إسلامية عامة ولا ظاهرة موروثة ومستمرة من الجاهلية إلى العصر الأموي .

وسار على نهج طه حسين كُتّاب ونقاد آخرون أخذوا بنظرية طه حسين مع شيء من التصرف والتغيير واقترحوا أسباباً لنشوء الغزل العذري، من ذلك وجهة نظرعبدالستار الجواري التي ذكرها في كتابه (الحب العذري) ، فهو يرى كما رأى طه حسين أن الحب العذري نشأ نشأة إسلامية بدوية جديدة لا عهد للمجتمع الجاهلي بها ، ويؤكد على أثر الدين في نفوس أهل البادية، وعلى موقف الإسلام من المرأة ، فقد رفع الإسلام من شأن المرأة وجعلها شريكة للرجل وليست متاعاً يأنس به ، ويوضح رأيه بقوله : " لقد جاء الإسلام بدستور اجتماعي ، وضع للعلائق بين الرجل والمرأة نظاماً محكم الأطراف متين القواعد، فلم يعترف إلا بالعلاقة المشروعة التي تسمى (الزواج) وحرّم الزنا ، وفرض على مرتكبيه عقوبة رادعة، فأوصد بذلك طرق التنفيس غير المشروع عن الغريزة " . وبعد أن يبين مكانة المرأة في الإسلام ، يقرر أن : الحب العذري ظاهرة إسلامية لم نعرف لها أصلاً في العصر الجاهلي، وهي ظاهرة إسلامية كان للدين الجديد والنظام الاجتماعي الذي

---

(١) حديث الأربعاء ص ٢٢١ ـ ٢١٤ وصفحات أخر .

جـاء به الأثـر الأول في خلقهـا وفي إخـراجهـا علـى هـذه الصورة " (١) ، والجواري لا ينكر أن عاطفة الحب قديمة كانت في الجاهلية وقد تطورت وكانت المرأة مصدر إلهام للشعراء ، وأن هذا الحب نبتت بذوره في المجتمع العربي في الجاهلية، ولكنها : " كانت في انتظار النظام الاجتماعي الذي يعينها على النماء ، ويدفعها إلى التكامل ، وقد وجدت ذلك في النظام الاجتماعي الذي جاء به الإسلام " (٢)، ولا يغفل الجواري عن أصول هذا الشعر وبذوره الجاهلية فيقول : " إننا لو نظرنا في الأدب الجاهلي لوجدنا في بعض ثناياه بذوراً لعاطفة الحب، وصورة بسيطة من صوره، فيها سذاجة وليس فيها السعة التي نشهدها في الحب العذري ، ولا الأغوار البعيدة التي ينفذ إليها في النفس، والآفاق الواسعة التي ينبسط فيها، وآية ذلك أن عاطفة الحب في الشعر الجاهلي يعوزها الاستمرار والانسياب ".(٣)

ومما يلاحظ ويؤخذ على الجواري أنه يقصر هذا النوع من الحب على قبيلة عذرة التي ارتبط هذا الحب باسمها ، فهو يقرر أن : " في هذا العصر ـ عصر الاستقلال السياسي في الإسلام ـ يشتهر بنو عذرة بشيء لم يعرفوا به من قبل، ولم يعرف به أحد من قبلهم، يشتهرون بالحب القوي الصادق العفيف الذي يملك الروح، وينتظم النفس، ويسمو على شهوات الجسد، ويشيع هذا الحب فيهم، ويعرف بهم، حتى يقال للعاشق الثابت على حبه،

---

(١) الحب العذري نشأته وتطوره ص ٥١، ٥٧، مكتبة المثنى ـ بغداد، دار الكتاب ، القاهرة، د. ت

(٢) السابق ص ٥١ .

(٣) الحب العذري ص ٣٦ .

المخلص في وده، المتنزه حبه عن شهوات الجسد إنه (محب عذري) " (١)، ويقول في موضع آخر إن هذا الحب : " نشأ في البادية ، وفيها ترعرع، وعرفت به قبيلة معينة ، وعرف بها ، تلك هي قبيلة عذرة، إحدى القبائل التي كانت تقيم في بادية الحجاز " (٢) .

وقد تقدم أننا استعرضنا أسماء الشعراء العذريين وبيان نسبهم فلم نجد في صدر الإسلام والعصر الأموي غير شاعرين من بني عذرة هما عروة بن حزام وجميل بثينة ، وبقية الشعراء العذريين من قبائل أخرى، وان قول الجواري إن الحب كان وليد التطور الاجتماعي الذي أحدثه الإسلام والمثل والقيم الخلقية التي جاء بها، وهذا أمر صحيح إلى حد ما، ولكن السؤال هنا: لماذا اقتصر هذا الحب ـ كما ذهب الجواري ـ على قبيلة واحدة وعلى منطقة واحدة هي وادي القرى في الحجاز، ولماذا لم يشمل بقية القبائل التي كانت في الحواضر والمراكز الدينية حيث أثر الإسلام كان أشد فيها وأعمق ؟ وقد شمل فعلاً قبائل كثيرة كما تقدم .

ومادام الجواري قد أقصر هذا اللون من الحب والشعر على بني عذرة فإنه يعلل ذلك بعلل منها: اشتهار بني عذرة بالرقة والدماثة والجمال، وهذه الصفات تهذب الذوق وتثقف المشاعر وتسمو بالعواطف . ويرى أن هناك سبباً آخر هو فراغ شباب بني عذرة من مشاغل الحياة والشقاء في كسب العيش والكد في الحصول على القوت، لأنهم في حال من اليسر وخفض العيش، ويستنتج من كل ذلك : أن اجتماع الفراغ والغني إلى الرقة والدماثة وشيوع الجمال كل ذلك أنتج حباً كهذا الحب الذي اشتهر عن بني

---

(١) الحب العذري ص ٤٢ .

(٢)السابق ص ٣٦ .

عذرة (١) .

أقول إن بعض هذا صحيح ولكن لو تأملنا في هذا التعليل لوجدنا أن أهل الحجاز وخاصة في مكة والمدينة كانوا أكثر غنى وجمالاً وفراغاً، وأن أثر الإسلام في البيئة الحضرية أكثر منه في البيئة البدوية، ثم ما الذي يمنع أن يعرف بنو عذرة والقبائل التي تجاورهم أن يعرفوا هذا الحب قبل الإسلام، وقد كان عروة بن حزام أشهر شعراء بني عذرة من أوائل شعرائهم في صدر الإسلام، وكانت ولادته في العصر الجاهلي، ومعنى هذا أن الحب العذري لم يكن وليد العصر الأموي بل كانت بدايته في العصر الجاهلي ونما وترعرع في ظل الإسلام وكثر وازدهر في العصر الأموي .

وباحث آخر تناول نظرية نشأة الغزل العذري هو شكري فيصل في كتابه (تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام)، وهو كسابقه يتابع رأي طه حسين في أثر الإسلام في نشوء الحب العذري ولذلك فهو يقدم هذا التعليل بقوله :" كان من عمل الحياة الإسلامية في الحب أن حوّلت اتجاهه من خارج النفس إلى داخلها، ودفعته إلى أن يتعمّق ذاته بأكثر مما دفعته إلى أن يحقق لذاته، إن هذه الحياة الجديدة جعلت منه تعرُّفاً إلى سرائر النفوس أكثر مما جعلت منه إشباعاً لغرائز النفوس " (٢)، ويرى أن الشاعر الإسلامي يتحدث عن عاطفة الحب بأشد وأقوى مما كان يتحدث بها الشاعر الجاهلي، لأن الشاعر الإسلامي يتعمق هذه العاطفة ويتأملها، وأن الإسلام ربط بين الحب والعفة فأصبحت العفة في الحب هي الإطار

---

(١) الحب العذري ص ٥٣ .

(٢)تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص ٢١٣، ط٦ دار العلم للملايين، بيروت . ١٩٨٢ .

الاجتماعي للحياة الفردية (١)، ويرى أن هذا الشعر بخصوصيته هذه هو وليد العصر الأموي ، فهذا الغزل كما يقول : لم يكن من الممكن أن يظهر بقدسيته وطهارته قبل عصر بني أمية، وهو أثر لتربية جيل جديد تربية صادقة صارمة، وكذلك يجب أن يكون أثراً لنوع من الحياة الاجتماعية التي تعرف الاستقرار وتساعد عليه، ولم يتوفر هذان الأمران إلا في عصر بني أمية(٢).

والباحث في هذا يحجب عن الغزل الذي سبق عصر بني أمية صفة الصدق وحرارة العاطفة وعمقها، وهو يؤكد بعد ذلك الأثر الديني في نشوء هذا الحب : " فالحب العذري إنما نشأ عن التقاء عنصرين اثنين ؛ أولهما العاطفة الدينية ، والثاني الميول الجنسية في نفس المؤمن الذي حسن إيمانه وقوي يقينه ، وكان الغزل العذري هو التعبير الفني الشعري عن هذا الحب " (٣) .

وخلاصة رأي الباحثين الثلاثة السابقين ؛ طه حسين والجواري وشكري فيصل أن الغزل العذري هو ثمرة من ثمار الإسلام نضج وازدهر في العصر الأموي، وليس له امتدادات وجذور سابقة .

وهناك فريق من الباحثين يرون أن هذا الضرب من الحب والغزل هو وليد العصر الجاهلي وامتدت فروعه وأسبابه إلى الإسلام والعصر الأموي، ومن هؤلاء الباحثين نجيب محمد البهبيتي في كتابه (تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري)(٤)، ويرى البهبيتي أن الغزل الإسلامي أخذ عن الغزل

---

(١) السابق ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

(٢)تطور الغزل ص ٢٨٤ .

(٣) تطور الغزل ص ٢٨٦ .

(٤) ط دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠ .

الجاهلي اتجاهاته الظاهرية وجري في مجاريه، وهذا المذهب يشتق أصوله من مقدمات وقعت في الشعر الجاهلي ويرى أن : " أستاذ الجميع في هذا على ما نعرف هو عنترة العبسي، وقصته نلمح فيها البذرة الأولى للغزل العذري الذي نشأ بعد ذلك في الإسلام وترعرع في وادي القرى في بيئة بين بين، لا هي من الحضر بمعنى الكلمة ، ولا هي من البادية بمعنى الكلمة، حيث تضطرب الحياة بين الجفوة واللين، والشقوة الملهمة والأمل الخلّب "(١)، ويرى البهبيتي أن عنترة شاعر مطبوع، رقيق النفس صادق الشعور، وفي غزله تعبير عما يجري في النفس ، ثم يذكر من شعراء الغزل الجاهلي العفيف عمرو بن شأس وهو عذري العاطفة والحب ، صافي النفس مهذبها، قوي الخلق يحب ابنة جار له من بني عامر، وكان قد أدرك الإسلام، وهو الذي يقول في غزله العفيف : (٢)

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا كفى لمطايانا بريَّاك هاديا
أليس يزيد العيس خفَّةَ أذرعٍ وإنْ كُنَّ حسرى أن تكونَي أماميا
ولولا اتقاءُ الله والعهدُ قد أرى منيَّتَه مني أبوك الليالِيا
لنا حاضرٌ لم يحضر الناسُ مثلَه وبادٍ إذا عدّوا علينا البواديا

ويذكر طبيعة الشعر العذري وخصائصه في الجاهلية والإسلام فيرى أنه :" نوع من تناول هوى النفس للحبيبة تناولاً يقصد به إلى التعبير عن العاطفة، وعما يكابده صاحبه بالحب، وما يلقى من تباريحه، ويصف فيه ما يذكره من لقاء صاحبته، مما هو واقع بنفسه ، مثير بقلبه من ألم ممض، أو

---

(١) تاريخ الشعر العربي ص ١٦٠ ـ ١٦٢ .

(٢) شعر عمرو بن شأس ص ٨٤ تحقيق يحيى الجبوري ، ط دار القلم، الكويت ١٩٨٣ .

جوى يتملكه، والشاعر في هذا لا يتناول العاطفة تناولاً مباشراً، ولكنه يركب إلى تصويرها الوقائع والشواهد العينية المستخلصة من تجاربه في الحياة " (١) .

وممن ذهب هذا المذهب في نشأة الغزل العذري في الجاهلية أحمد الحوفي في كتابه (الغزل في العصر الجاهلي) (٢) فهو يرى أن هذا الغزل نشأ واكتمل وصار فناً مستقلاً في العصر الجاهلي، وسبب ذلك أن الحياة الجاهلية صالحة لإنشاء هذا الحب العذري كما فُهم في الإسلام، وكانت المرأة ذات مكانة رفيعة ، وللعرب غيرة على النساء يحرصون على عاداتهم البدوية التي تصون العرض وتحمي النساء من قالة السوء ، وكان بعضهم يحب حبًّاً عنيفاً حاداً لا يبرده وصل ولا أمل ، وأن عدداً من الشعراء الجاهليين أحبوا حباً عذرياً، وتغزلوا غزلاً عذرياً، وقصر بعضهم على الغزل قصائد كاملة ، فلم يمهد به لغرض آخر، لأن غزله غاية يقصد إليها ، وهدف يرمي إليه، فهو إذاً تعبير متميز عن عاطفة الحب ، وقصر آخرون شعرهم على الغزل، فلم يصلنا من نتاجهم غير الغزل مثل عروة بن حزام (٣) ، ويسمي الحوفي الشعراء الذين تغزلوا غزلاً عذرياً في الجاهلية ويذكر لهم بعض الأشعار، وأولئك الشعراء هم : المرقش الأكبر والمرقش الأصغر، وعنترة، وعبد الله بن العجلان، وقيس بن الحدادية، ومالك بن الصمصامة، وعروة بن حزام، وغيرهم ، ويقول في شعرهم إنه شعر :" روحي لا أثر فيه لوصف الجسم ومطالب الجسد، أو فيه أثر ضئيل يشبه ذلك الأثر الذي في غزل قيس وجميل وتوبة ، وإنما هو نجوى وشكوى وتنفيس عما يعتلج بالقلب من

---

(١)تاريخ الشعر العربي ص ١٤٨ .

(٢)ط مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٠ .

(٣)الغزل في العصر الجاهلي ص ١٥٧ ـ ١٦٠ .

أشواق، ومايختلج بالصدر من حنين ولهفة " (١) .

وذهب هذا المذهب في جاهلية الشعر العذري حسين نصار قي كتابه (قيس ولبنى) (٢)، فهو يرى أن هذا الحب لم يوجد بعد الإسلام، بل وجد معاصراً له، ووجد قبله أيضاً، فالغزل العفيف ليس فناً إسلامياً جديداً، بل هو فن عرفه الجاهليون، وليس فناً ازدهر في الإسلام على حين كان ذاوياً في الجاهلية، بل كان ريَّانَ مثمراً في العصرين وهو ثمرة القيم البدوية القبلية التي ترى في المَنَعة ركناً أساسياً عند أهل البادية ، فمن شرف البدوي أن تكون فتاته منيعة الحمى، فالمَنَعة هي التي أوجدت الحب العفيف والغزل العذري، وهي التي قد تفسر ما ترويه القصص العربية عن امتناع تزويج بناتها ممن يشبب بهن (٣) ، ويعرض نصار لشعر العذريين فيقول : " إن هؤلاء الشعراء الغزليين لم يكن يعنيهم الفن الشعري، والتجويد في العبارة، وتثقيف الصناعة الأدبية، قدر عنايتهم بالتعبير المباشر الحر عما يحسون به من انفعالات .... وإن شعر العذريين جميعاً تلقائي ، يتسم بالصدق والحرارة والبساطة، والتعبير المباشر عما يجد الشاعر، ولم يكن أحدهم يعكف على نفسه ليستخرج أحسن ما عندها ، أو يجهد نفسه ليبلغ أغواره،أو يستبطن مشاعره ليبرزها في صورة كاملة خالدة، وإنما كانوا جميعاً يكتفون بأيسر ما يصلون إليه " (٤) .

---

(١) السابق ص ١٦٠ .

(٢) ط دار مصر للطباعة د.ت.

(٣)قيس لبنى ص ١٠ .

(٤)السابق ص ٩ ، ١٥ .

هذه أهم الدراسات التي تعرضت لنشأة الغزل العذري، وكان الاتجاه الأول الذي مثله طه حسين ومن تابعه يرى أن الشعر العذري إسلامي النشأة ازدهر في العصر الأموي، أما الرأي الثاني فيرى أن الغزل العذري والإسلامي له أصول راسخة في الشعر الجاهلي ، وأن الشعراء العذريين في العصر الأموي ورثوا أصول هذا الشعر وأساليب الغزل فيه عن أسلافهم الجاهليين واحتذوا حذوهم في أساليبهم ومعانيهم وصورهم، وهذا الرأي هو أقرب إلى حقيقة هذا الشعر ، وقد تأثر الشعراء العذريون في الإسلام بالمعاني الدينية فظهرت في شعرهم المعاني الدينية التي تنم عن تقى وورع وعفاف وسمو روحي، واللجوء إلى رحمة الله في تخفيف آلامهم وزوال محنتهم .

وقبل أن نغادر موضوع نشأة شعرالغزل العذري ننبه إلى أن هناك بعض الدراسات التي تناولت الموضوع ولم نجد فيها الموضوعية أومعرفة هذا الغزل على طبيعته وفي بيئته وزمانه، بل ذهبت بعيداً في الأحكام المتخيلة والمشتطة التي تلبس الشعر العربي أثواب الحضارات اليونانية والأوربية . من ذلك ما ذهب إليه المستشرق ماسنيون من افتراض وجود علاقة بين الحب الإفلاطوني والحب العذري، وتابعه المستشرق دوزي في هذا الرأي حين عرض لدراسة ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، أما آسين بلاثيوس فيحاول تفسير ظاهرة الحب العذري بأنها متأثرة بالحب في المسيحية (١) ، والمتأمل في هذه الآراء يجد البطلان واضحاً فيها، فالعلاقة بين الحب العذري

---

(١) راجع هذه الآراء في كتاب الحب في التراث العربي : محمد حسن عبد الله ص٣٢١ ط الكويت ١٩٨٠ .

والإفلاطونية تستوجب أن يكون الجاهليون قد اطلعوا على الفلسفة اليونانية، وهذا لا يتأتى لبدو الصحراء الذين تتفشى فيهم الأمية في جزيرة منعزلة عن العالم ولم تتأثر بالحضارات المجاورة، وهم شعراء بالفطرة ليس فيهم فلاسفة ولا حكماء . وكذلك يُرد القول القائل بتأثر الحب العذري بالحب المسيحي، إذ لم يكن في هؤلاء الشعراء العذريين من اعتنق المسيحية أو عرفها، وهم في مجتمع بدوي لم ينفذ الإسلام إلى قلوبهم وهم قريبو عهد به، فكيف بدين لم ينزل فيهم، وليس فيه كتاب مكتوب بالعربية في زمنهم، وفي أمة لا يقرأ ولا يكتب عامة الناس فيها (١) .

وكان أجرأ من كتب واشتط وخالف المعهود هو صادق جلال العظم في كتابه (في الحب والحب العذري)(٢)، فهو يرى أن الاصطفاء للمحبوب يقوم على التفاهم النفسي والجسدي خارج حدود النظم الاجتماعية، وبذلك يكون حباً كبيراً قد يقترن بالمأساة (٣)، وإن هذا الحب يخرج على أعراف المجتمع الذي يؤمن بشريعة الامتداد في الحب والزواج، ولذلك فانه يقترن بالكبت والقمع العاطفي والكتمان وبوجود الرقباء والعذال والوشاة (٤) ، ويرى أن هذا الحب ينحو نحو الهروب من تحقيق النهاية المنطقية لهذا الحب (٥)، ويستمر الباحث في هذه الفرضيات البعيدة عن طبيعة الحياة العربية فيزعم أن الحب العذري : " قائم على الزنى وعلى خرق فاضح لمؤسسة الزواج " (٦)،

---

(١) الحب في التراث العربي ص ٣٢١ .

(٢) بيروت ١٩٦٨ .

(٣) السابق ص ١٤ ـ ١٥ .

(٤) السابق ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٥) السابق ص ٧٨ .

(٦) السابق ص ٨٢ .

وتبلغ ذروة المبالغة بالباحث والبعد عن طبيعة الحياة البدوية إذ يزعم أن المحبين العذريين :" لا يريدان الحب الذي ينزع نحو الدوام والاستمرارضمن مؤسسة الزواج، لأن ذلك لا يتحقق إلا على حساب اشتداد الحب وتوهجه، وكلاهما يبحث في الحقيقة عن حدة الانفعال في العشق ويريد العمل دوماً على تصعيد عنف عشقه وقوته إلى أعلى درجات التوترالممكنة، ولكن العاشق العذري لا يحافظ على عنف عشقه بالتنقل الدائم عن حبيبه، كما يفعل الدونجوان الكلاسيكي ، وإنما يركز أحاسيسه على محبوبة واحدة فريدة ويؤمل النفس دوماً بالحصول عليها، ولكنه يصطنع في الوقت ذاته جميع العراقيل الممكنة ليحول بينه وبين امتلاكها " (١).

والقاريء لهذه السطور يظن أن العظم يتحدث عن محبين عاجزين مرضى منحرفين، ولعله لا يدري أن كل العشاق قد حاولوا الزواج بمن يحبون فمنعهم العرف الاجتماعي الذي يرى من العيب أن يزوج الرجل ابنته ممن قال الشعر فيها وتغزل، دفعاً للريبة، ويبعدون العاشق عن ابنتهم بقوة السلطان وهدر الدماء ، فتتأجج عواطفه ويزداد تعلقاً بحبيبته ، كما ان بعض الشعراء استطاعوا الزواج بمن يحبون وفارقوها بضغوط الأهل كما كان شأن قيس لبنى. ويحاول العظم بعد ذلك أن يطبق كل الأمراض النفسية على الشعراء العذريين فيزعم أن هؤلاء العذريين مصابون بعشق الذات أكثر من عشق المحبوب (٢)، وان الحب العذري يمثل مرضين متناقضين بالإضافة إلى حب الذات (النرجسية) فيقول : " ولا تخلو ظاهرة الحب العذري من خصائص السادوماسوكية من حيث إنه يميل ميلاً شديداً إلى تعذيب النفس والغير

---

(١) السابق ص ٨٨ .

(٢) السابق ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(أي الحبيب) بدون مبرر واضح أو غاية محددة ، وإنما لمجرد الاستمتاع والتلذذ بالألم والعذاب باعتبارهما جزء اً لا يتجزأ من عنف التجربة الغرامية العذرية وشدة انفعالاته "(١).

والباحث هنا يجمع في الشاعر العذري كل الأمراض على ما فيها من تناقض، فكيف تجتمع السادية مع الماسوشية مع النرجسية، أي حب الذات وإهانة الذات وتعذيب الآخر في شخص واحد، ويصل العظم إلي نتيجة خلاصتها :" أن الحب العذري لم يرتفع إلى مملكة الروح لأن السبيل إليها يمر بمملكة المادة والجسد، والعاشق العذري يؤجل بنفسيته المريضة المرور بمملكة المادة إلى ما لا نهاية ، فيكون قد فقد بذلك المملكتين معاً " (٢) . وفي أكبر الظن أن الباحث لم يتعرف على طبيعة الشعر العذري في بيئته العربية البدوية وما فيها من ظروف اجتماعية واقتصادية وعادات وتقاليد، ولم يطلع بوضوح على تراجم هؤلاء الشعراء وقصص حبهم، بل كان يتخيل مجموعة مرضى قياساً على مرضى السكارى في مواخير الحي اللاتيني في باريس أو مواخير سوهو في لندن ، ولعله حين طبق كل الأمراض النفسية على العذريين رغم تناقضها يتخيل الشاعر جميل بثينة أو مجنون ليلى بيده عصا غليظة وهو يطارد بثينة أو ليلى وهي هاربة منه حافية في رمال الصحراء ، وبعد جهد جهيد ينهال عليها ضرباً مبرحاً حتى يدميها، فينفِّس بذلك عن ساديته، ثم يعطيها العصا فيأمرها أن تنهال عليه ضرباً مبرحاً حتى تدميه ليحقق ماشوسيته في جلد الذات وعذاب الجسد، ثم يعود

---

(١) السابق ص ١٠٤ .

(٢) السابق ص١٠٩ .

الحبيبان كل منهما يلعق ما سال من دمه منتصراً وقد حقق النرجسية في حب الذات.وهكذا ينفس عن أمراضه الثلاثة المتناقضة .

وبعد فقد قالوا قديماً : (ما هكذا يا سعد تورد الإبل) .